

في الأدب المغربي^(١)

للمؤلف: غفر الله محمد العمراني

خريج دار العلوم

تحت هذا العنوان أريد التحدث قليلا فيما يختص بأدب المغرب الأقصى وحياته منذ الفتح الأندلسي (سنة ١٧٢ هـ) إلى آخر القرن الثالث عشر الهجري . وهو موضوع طويل وعريض . وأخشى أن يكون طوله وعرضه عاملا من العوامل التي ساعدت على التفسير الذي أعترف به من الآن . إن الوقت لا يسمح لي الآن بالدراسة التفصيلية لهذا الأدب ، كما أن مصادر البحث التي يمكن الرجوع إليها قليلة جداً . ولهذا سأقتصر على أن يكون هذا البحث مركزاً للغاية . وسأجتهد في إعطاء فكرة تثير السبيل أمام من يريد التوسع في هذا الأدب . وقد تناحى في الفرصة لدراسة ألوان الشعر والنثر حين يكون في الوقت متسع ، ويكون مجال البحث أيضاً واسعاً .

الغرض من هذا البحث

قد يتفق لبعض الناس هنا في مصر (كمية العلم في العصر الحاضر وملئقي الشرق والغرب) أن يسألني عن موقع البلاد المراكشية وهل المراد بها المغرب الأقصى؟ كما يتفق للبعض الآخر أن يستفسر عن موقع مدينة ما من هذه البلاد ، فأستف أشد

(١) محاضرة ألقيت في قاعة علي باشا مبارك بدار العلوم

الأسف لأن هذا البعض أو ذاك يجهل مثل هذه الحقائق ، ثم أدله على موقع هذه أو تلك لا كثرين قد أدبت بعض الواجب على في إيقافه على ما يريد .

قد طرق سمعى مثل هذا السؤال غير مرة فكنت أقول في نفسى : إذا كانت هذه هى الحال فى معرفة البلاد فكيف الحال فى معرفة أهلها ونتاجها الادبى وغير الادبى ؟ أفلا يحق لى والمثل أن يتعرف إلى الناس مادام أنه قد عرفهم ؟ وأن يعرفهم ببلاده وأدبها مادام هو ببلادهم ؟ فليكن ذلك ! وليقدم كل واحد على التعريف بوطنه وأدبه . فإن زمن الوشى أو المعجزات قد انقضى . إن الادب لا يعرف الحدود الجغرافية ولن يعرفها ، بل هو حق مشاع بين أفراد الجنس البشرى عامة ، وبين أفراد الامة الواحدة خاصة . إذن فما هذه الحدود والقيود التى تجعل أدب قطر عربى يحجم عن اقتحام قطر عربى آخر مثله ؟

أجل ، هى حدود الصدود والبعاد التى تجعلنا نتسامل : ألا من وصال ؟ وإذا كانت الحروب الحديثة يرجع اليها الفضل التام فى التعريف بالمناطق أو المدن التى تدور حولها رحى الحرب فإنى لأرى مانماً من إن أعلن الحرب على الادب المغربى ؟ لعل ذلك يثير من حب استطلاع القراء وأدباء الشرق ما يشئ غليلى وعليل كل من يشعر بأن أدب قومه أو بلده يجب أن يسرى على الاسن سريان تيار النور فى أسلاك السكهرباء .

يجب أن نقضى على ما هو كائن أو كان ، وأن نلتفت إلى ما ينبغي أن يكون ، يجب أن يكون الأدب أداة اتصال وهمة وصل بين أمم الارض جميعاً ، وبالأحرى بين أقطار الامة الواحدة . وما ذلك إلا لان الادب هو السفير الحق بين هذه الامم بعضها مع بعض ، وبين أجزاء الامة الواحدة من باب أولى ان كان هناك أجزاء . ان رسالة الادب لن تنقضى ، وان جميله لن ينكسر مهما كان نوع هذا الادب ولونه . ويزكرنى هذا بمعركة أدبائنا التى وقعت بعد انهيار فرنسا فى هذه الحرب الضروس والى كان أحد جانبيها فى مصلحة الامة المهزومة ييكها ويرقى حالها ، وذلك على الرغم من أنها طالما سامت أبناء أمته سوء العذاب .

إن العصر الحديث يمتاز بالسرعة فى كل شئ ، حتى إن العالم صار ازاء المواصلات

كانه كرة صغيرة أمام الشخص يضع أصبعه على المواطن المختلفة التي يريدها فيصلها بأقصى سرعة . أمع هذا نجد صعوبة في وصل المغرب بالشرق ؟ أم نجد صعوبة في توحيد المناهج الثقافية والادبية بين مختلف الاقطار العربية . ولعل المؤتمر المقبل للتعليم الاسلامي سيقضى على كل الحدود والقيود فيما بين الآداب العربية المختلفة ، ولعله كذلك سيعمل من مشكلات التوحيد الثقافي ما يحقق شيئا من الآمال في هذا السبيل .

الادب وأهميته

ان الادب — وهو فن من الفنون الجميلة — لابد أن يتغير تغير البيئة ، وأن يتأثر بكل ما لها من مؤثرات فيه ؟ ومن هنا كان لكل أمة أدبها الخاص .

ومن هنا أيضا كان الكاتب أو الشاعر صورة من بيئته الاجتماعية المحيطة به . وما الادب إلا لحن جميل تردده الامة شرقا وغربا بعد أن تفتن فيه قرائح الابداء بقدر ما تسمح لها به بيئتها وظروفها الاجتماعية ، وبقدر ما تدركه وتمسه من ألوان الجمال الفني ، ثم بقدر ما يعبر عن عواطفها ومشاعرها المستقلة — نوعاً ما — عن عواطف و مشاعر أقرانها في أي نحو من أنحاء العالم .

فأهمية الادب تبدو في تعبيره الصادق عن حياة الامة وروحها . والحياة بأنواعها السياسية والاجتماعية والاقتصادية لابد أن تترامى على مرآة صافية صقيلة هي الحياة الادبية . وإذا ما أردنا أن ندرس حياة أمة من الامم فلا بد من الرجوع الى اتاجها الفني ، والادب في الطليعة من هذا التاج . ان ارتباط التاريخ بالادب شديد ، ومن ينكر أن التاريخ العربي — مثلاً — مدين بالشئ الكثير للادب في كشفه عن الحياة الجاهلية وجلاء غامضها ؟

ويقال هذا في حياة الامة ذات الادب اللفظي من ألوان الشعر والنثر ، أما الامة ذات الادب الرمزي كأنواع التصوير والنحت فلا تخلو من أن يكون أدبها مصحوباً بنقوش تبرز عنه وتحدد لنا الاشياء الادبية المطلوبة . على أن الامة قد تجمع بين الادبين فيسير اللفظي والرمزي جنباً الى جنب كلاهما يكمل صاحبه فيعبر عما نحن

في حاجة الى دراسته وكشف غموضه . ولا يخفى أن للادب في كل حال من هذه الاحوال الثلاث مقامه الذي يختلف قوة وضعفاً باعتبارين مختلفين .
سقنا كل هذا لتخلص الى نتيجة واحدة هي أن الادب بنوعيه مصدر مهم في حياة الامة وتاريخها ، بل في أية ناحية من نواحي هذه الحياة .

الصلة بين الآداب عامة

كلنا يعرف أن لكل أمة أدبها الخاص وهذا مما لا جدال فيه . وكلنا يعرف أن الامة العربية ممالك وأقطاراً ، فلا عجب إذن أن يكون للادب العربي ممالك وأقطار أيضاً ، والا فما كان للاندلس أدب ولا المغرب والشام وبلاد العرب مثلاً — آداب أخرى ، وإلا فافكر كذلك أدباء مصر الآن في أن يكونوا لها أدبا أو هو كائن بالفعل ولكنهم في حاجة الى أن يجمعوا شمله ويلموا شعثه حتى يصير كائناً حياً معترفاً به من لدن البيئات الادبية الاخرى .

انه لمن السخف جداً أن يقال : ان الادب الجاهلي نسخة من الادب اليوناني القديم أو ان الادب في قرطبة صورة مكررة لأدب بغداد .

وتد يقال : ان العواطف الانسانية وحدة لا تنفك أجزاؤها ، وسلسلة متصلة الحلقات لا يدرى أين طرفاها ، فلم لا يكون الادب باعتباره معبراً عن تلك العواطف وحدة كذلك ؟ والجواب على هذا هو أن طريقة الاداء والتعبير عما في النفس تختلف باختلاف الزمان والمكان والانسان ، وان كانت العواطف والمشاعر لا تختلف ذلك الاختلاف .

ان الطبيعة هي الام الروم ، مستعدة لامداد كل انسان بما يخصه ، ولكن الانسان هو الذي يختلف في كمية ما يأخذه وكيفيته ، وهذا هو مصدر التعدد والاختلاف بين انتاج الاشخاص بعضهم مع بعض أولاً ثم انتاج الشخص الواحد ثانياً .

وما الشأن في اختلاف الاداء وطرق التعبير عن العواطف الانسانية إلا كشأن الصور الزيتية المتعددة لمنظر ما ، فالمصدر واحد ولكن الاختلاف جاء من

نظرة كل فنان الى المنظر الذي أمامه ، فكانت النتيجة أن تختلف الاوضاع والالوان الزاهية لتبدو الصورة ملائمة للطبيعة حيناً ، وفاتكة ايها في حينها وجمالها حيناً آخر .

ومع هذا الاختلاف فإن الآداب عامة لا تعدم صلة قربى وتشابه بين بعضها والبعض الآخر . وهو تشابه محدود على كل حال ، وإن كان يطيب لبعض الناس أحياناً أن يسموه بالأخذ أو السرقة الادبية . والقول الفصل في هذا هو أن المعاني مشتركة والعواطف واحدة وأنها ملك مشاع بين جميع أفراد الجنس البشري ، فلكل واحد الحق في أن يتصرف كما يشاء وأن يعبر عما يحسه ويدركه كيفما يريد . والاتفاق في طريقة الاداء وأسلوبه قد يكون ناشئاً من أن الاديب اللاحق متأثر بالسابق أي أنه قرأ وحفظ له كثيراً ثم نسي ما حفظ أو قرأ . ولكن الخلاصة المهمومة ، الممثلة ، لانزال عالقة بذهنه يستطيع التعبير عنها متى أراد .

فعملية الهضم والتحويل ، تحيل المعاني أو الافكار المنسية جزواً من لحم الكاتب أو الشاعر ودمه ، وأظن أنه من الاجتهاد وعدم الانصاف بعد عملية التمثيل هذه أن يقال : إن هذا المعنى لفلان وإن كان له فضل السبق والتقدم فيه .

على أن وجوه الشبه هذه أو ما يسمونه بالأخذ أو السرقة قد تكون بين أدبيين من أمتين مختلفتين لكل منهما لسان خاص ، وقد يكون أحدهما أو كلاهما غير عارف بلغة الآخر . يعلل هذا بأن الانسانية جمعاء مشتركة في معاني وأحاسيس يحسها كل من له عقل أو قلب ، ولا فرق في هذا بين زمان أو مكان أو لسان . فأداب اللغات المختلفة تتشابه كتشابه الآداب في اللغة الواحدة ، مثل الاداب في هذا كمثل الناس في صورهم وأجسامهم كلاهما يمشي على نوع من الوراثة تشابه فيه الفروع الاصول في قليل أو كثير ، وفي أزمان متلاحقة أو متباعدة . إن الانسانية ليست متشابهة في الاشكال والالوان فحسب ، ولكن في القرائح والمقولات أيضاً .

شخصية الادب المغربي

لئن كان المغرب الاقصى شخصية ثابتة واستقلال ذاتي في عاداته وتقاليده فلا يدهشنا أن يكون له أدب ذو شخصية ثابتة واستقلال ذاتي كذلك . ومادام الأدب صورة للمجتمع ولما في الحياة التي يحياها أهل ذلك المجتمع ؛ وما دامت هذه الحياة تختلف باختلاف المؤثرات فيها من عوامل البيئة والوراثة ، فإنه من المحتمل جداً بل من المتعين أن يكون لكل مجتمع أدبه الذي يكون مستقلاً بقدر ما تسمح به طبيعة ذلك المجتمع التي تطبعه بطابع خاص ، وتصبغه بصبغة ملائمة لحياته السياسية والاجتماعية والاقتصادية .

ولا يغرب عن البال أن المغرب منذ وطئت ثراه قدما المولى ادريس بن عبد الله سنة ١٧٢ هـ ظل مستقلاً عن المشرق سياسياً حقبة طويلة من الزمن فنشأت به وازدهرت دول عظيمة الشأن في التاريخ السياسي للمغرب الاقصى فلا عجب إذن أن يستقل عنه أدبيا ، ولا عجب أيضاً أن يكون لفنون القول سياسة كما كانت لامور الدولة سياسة وللسياسة كلاً لا يخفى تأثيرها البالغ في احياء الادب وتوجيهه وصبغه بالصبغة التي تلائمها في كثير من الاحيان واذا عرفنا ذلك عرفنا (أن المبدأ الذي يقول : بأن الادب للأدب ، قلنا يتحقق لكل الناس وفي كل حين . وعلى كل حال فهو مبدأ ينبغي أن يعمل الناس على تحقيقه في أي وقت كان)

لقد اختلفت الأذواق ولا زالت تختلف في معرفة البلاغة التي هي مطابقة الكلام لمقتضيات الأحوال ، ومادامت هذه الأحوال تختلف باختلاف الأقاليم والاقطار فلا شك أن بلاغة أهل المغرب — كما يقول ابن خلدون — غير بلاغة أهل المشرق وبلاغة الاندلس غير هاتين ، لأن عربية المغرب متأثرة بالبربرية (لغة السكان الاصليين) وعربية المشرق متأثرة أيضاً بالفارسية والتركية وعربية الاندلس متأثرة كذلك بلغة الفرنجة والجلالفة (الاسبان) . فمعرفة أية بلاغة من هذه لا تحصل إلا لمن خالط تلك اللغة وكثر استعماله لها ومخاطبته بين أجيالها ، إذ أن كل واحد مدرك لبلاغة لغته وذائق محاسن الشعر من أهل جلده ،

وهنا أرى نفسي مضطراً للرد على صاحبي كتاب : المطرب في أدب الاندلس والمغرب ، فقد تجنبا على الادب المغربي وحكما عليه حكماً لا يوافق حقائق الامور .

إن هذا الحكم ناشئ من أنهما لم يحسنا الاطلاع على فوائدهما الادب والفنوس وراه لآلته ودرره . وهذا يحصل كثيرا من أدبائنا الذين ألفوا الحكم على الاشياء قبل معرفتها وتجاهلوا أن الحكم على الشيء فرع دراسته الدراسة العميقة ، وأن البحث العلمى الدقيق يجب أن يتحرى الحقائق وأن يضع الأمور في نصابها لأن ينظر بعين السخط فيجعل من القبة حبة ، أو بعين الرضا فيجعل من الحبة قبة كما يقولون .

كما أن حكمهما أيضا قد يكون ناشئا من قياسهما الخطي . قياس الشعر الجيد الرصين على ذلك الشعر العامى الذى قرأه فى مقدمة ابن خلدون وغيرهما ، الشعر الذى ينبغى أن نعدّه شاهدا لاعلى ضعف الملكة الشعرية هناك ، بل على أن هناك نوعا جديدا من الشعر العامى الاجتماعى نبت وترعرع فى أخصب واحد مع الشعر العربى النصيح . على أن هذا الشعر العامى - كالفصح - يختلف من مكان الى مكان ، فبلاغته لا يمكن أن تدرك إلا لمن خالط لغة المكان وكثر استعماله لها ومخاطبته بين أجيالها كما تقدم . إذن لا يمكن أن نصغى أو نتقبل حكم صاحبتنا فى هذه الناحية ، إلا اذا تقبلنا حكم أجنبي عن مصر (لا يحسن عاميتها) فى ديوان الاستاذ بيرم التونسي مثلا أو مجلة من مجلات الفكاهة المصرية .

ولعل هذا لم يخرج بنا عن الموضوع مادامنا بصدد الحكم على أن الآداب مستقلة بعضها عن بعض نوعا ما من الاستقلال ، وأن بلاغة هذه الآداب تختلف باختلاف الزمان والمكان والانسان

مميزات هذا الأدب

لا بد لي أن أعطى صورة صادقة عن هذا الادب المغربى - من أن أجل مميزات فى ميزتين اثنتين أستطيع الدعوى بأنها كافية فى اعطاء هذه الصورة واذ كان لكل دعوى دليل فدليلي الذى أقدمه بين يدي القارئ الكريم هو أن يصغى أو يتأمل ما يأتى : -

(١) السهولة : يمتاز الادب المغربى بأنه سهل فى لفظه ومعناه ، أسلوبه وخياله ، تعبيره وتفكيره ، ليست فيه تلك الصعوبة التى قد تضر بضروب الادب وألوانه أكثر مما تنفع .

إن للتفكير مجاله فى الحقيقة والخيال ، وللتعبير مجاله كذلك ؛ ومادامت الحقيقة

ثابتة واضحة ، ومادام الخيال توأما لها فالمنتظر أن الأدب سيكون على جانب عظيم من السهولة في التفكير الذي يخامر الهموس ، وفي التعبير عما يجول بالنفوس ، وما ذلك إلا لأن مصادر الوحي والالهام من طبيعة وبيئة وحياة سهلة كذلك وما يزيد الطبيعة وضوحا تميز الفصول السنوية بعضها عن بعض ، فكل أوانه وموسمه إلا أن الأدب له في كل موسم موسم فلكل شتاء الذي هو موسم المطر أوانه الذي يجتمع فيه الحبان في ظلال بنت العنب (الخمر) وزقزقة المصافير تلك هي الصورة السحرية التي يصورها لنا ابن الطيب العلى مؤلف الانيس المطرب :

أقول للمحبوب في روضة والطل يسعى والثرى يشرب
زوج لبنت المكرم ابن السما فالطير في مثله يخطب
والربيع أوانه الذي يقترن فيه ركوب الخيل بركوب الازهار على قصبان
الاشجار ، وتشدو فيه الطير فوق الغصون فتتهز هذه بدورها وكأنها ترقص على
تغريدها تلك هي الصورة الجميلة التي تخيلها القاضي ابن زنباع فأداها ببعض أبيات
من قصيدة يصف بها الربيع خير اداء :

أعريت خيلك صيفها وخريفها وشتاها ، ههنا أوان ركوبها
أو ماترى الازهار مامن زهرة الا وقد ركبت فقار قضيبها
والطير قد خفقت على أفنانها تلقى فنون الشدو في أسلوبيها
تشدو وتمسز الغصون كأنما حركاتها رقص على تطريبها
إلى غير ذلك مما لا أريد الاطالة به في هذا الموطن .

فهذا الشعب الذي طبيعته في أساسها غير عربية ، والذي عريته ليست أصيلة فيه ، لا ينتظر منه التقعر في اللفظ والتمعق في المعنى ، ذلك التقعر والتمعق الذي قد يزرى بالآداب حين ارادة الحكم لها أو عليها وحين عقد الموازنة بين بعضها وبعض .

وانما المنتظر أن تكون لهذا الادب رقة كذلك التي تراها في الرياض والازهار والاطيار ، وسلاسة كسلاية المياه المنصبة خلال الجداول والانهار وجزالة كتلك التي تحكيها الجبال الراسيات ومثلها البحر في ديجانه وموجانه ... إلى غير ذلك

من فنون القول وصنوف المقول فيه مما يصور الطبيعة والبيئة والحياة ، ويعبر عنها
أصدق تعبير . وهذا غاية ما نرجوه من أدب شعب عرف طبيعته فاستطاع أن يعبر
عنها واستطاع أن يحسن ذلك التعبير .

(٢) الصديق : ويتجلى صدق هذا الادب في أنه يتحرى الحقيقة على الخيال ،
بل ربما كان خياله في الواقع حقيقة ، لأنه يسجل عليه ثوبا من الصديق يصير به كأنه
من الحقيقة في الصميم . وهل الخيال إلا صورة صادقة للحقيقة تنعكس على مرآة
العقل الصقيمة فلا نلبث أن ندرك الصلة بين الصورتين ، وأنها صلة قرينة وشيجة .
مثل الحقيقة والخيال في هذا كمثل من يقف أمام المرأة لا يلبث أن يوحد بين
صورتيه : الحقيقة والتي يراها أمامه ، ثم لا يلبث أن يدرك الفرق وكأنه لا فرق .

إن هذا الادب معبر عن البيئة التي نبت فيها لأنه يغنى ويشدو بطبيعة قد لا نحصل
عليها في أي بلد من البلاد . فهذا البلد الذي يحب الفروسية من قديم الزمن ، نجد
حبه لها لا يدانيه الا حبه للأدب الذي يستطيع الاديب أن يجمع بينه وبين الفروسية
في حلبة واحدة ويقارن بين الاثنين فيعطينا صورة هي - بلا برهان - من صور
المغرب الأقصى .

يجب على الاديب قبل التعبير والتصوير أن يقف أمام المنظر ، بل يجب عليه
أن يطوف حوله وبين جنباته طور بلا حتى يعطينا صورة حقيقية كالتى رآها وانطبع
بها نفسه . ولا جدال في أن تصوير من رأى وجرب غير تصوير من سمع وقلد ،
وأن تصوير ما انطبع في النفس وتأثرت به غير ذلك الذي يعتمد على غيره
فها هو ذا القماض عياض ، قد رأى منظرا طبيعيا يتمثل في خامات زرع بينها
شقائق نمان هبت عليها رياح ، فأخذ يصور ذلك بصورة يكفى أن يقال فيها : انه
الخيال الذي يتفق والحقيقة : -

أنظر الى الزرع وخاماته تحكى وقد ماست أمام الرياح
كتيسسة خضراء مهزومة شقائق النمان فيها جراح

ويتجلى صدقه أيضا في وصف الطبيعة المغربية الخاصة ، ووصف حياة المغاربة
الممتازة عن غيرها . فهو مصور لها في سرائرها وخصرائها : ففي السراء يعبر بالتغريد

فى جنات الارض ، وبالتحليق فى أجواز السماء ، وفى الضراء يعبر بالنوح
والشجن باديا عليه الابتغاء والرجوع الى الله وهو اذا لم يجد وسيلة للتعبير فى تلك
الايام السود عن تلك الحزن والدواهى ، فقد يكون وقوفه عن السير والتقدم ضربا
من هذا التعبير الصادق ، وهل الاضراب عن العمل فى الوقت الحاضر ، إلا وسيلة
صادقة للتعبير عما يحول بالخواطر ؟

إن احكام التفكير واتقان التعبير ينتجان حسن الاداء ، وهو الادب الحى
الذى لا يموت

عصور ادبنا المغربى

لقد جرت عادة المؤرخين والادباء ، أن يقسموا العصور على حسب الانقلابات
السياسية والحركات الهائلة التى تمر بالشعب فى حياته التى يحياها . وإذا كان المؤرخون
محققين فى هذا التقسيم فى معظم الأحيان ، فإن الادباء قد لا يكونون كذلك فى بعض
الأحيان . فليس للأدب عمر خاص ينتهى بانتهاء أجله كالإنسان ، وليس له حياة
تابعة لغيره فيحيا بحياة الدلة ويموت بموتها . وإنما هو فى طريقه يواصل السير
مادام لا تصدمه عقبات فى تاريخ الدولة الجديدة .

وعلى هذا الأساس الذى لا يعتبر الانقلابات السياسية فروقا أساسية بين بعض
العهود وبعض ، سندمج عهد دولة بنى أبى العافية ودولة مغراوة وبنى يفرن فى عهد
الإدارة الذى استغرق زمنا أطول مما استغرقته الدولتان اللتان تلتاه ، والذى كان
عرق الادب فيه ينبض بماء الحياة ، كما سندمج عهد المرابطين فى عهد الموحدين ،
وعهد بنى وطاس فى عهد بنى مرين^(١) . وهناك عصران مستقلان قائمان بذاتهما
هما : عصر السعديين وعصر العلويين . فتتكون عصور الادب على هذا خمسة ،
منفردة كل عصر منها بكلمة تبين حال الأدب فيه بوجه عام :

(١) عهد الإدارة : (١٧٢ - ٣١٣ هجرية) . آل أبى العافية : (٣١٣ - ٣١٢)
المغراوة وبنى يفرن : (٣٦٢ - ٤٠٠) المرابطين : (٤٠٠ - ٥٦٤) الموحدون : (٥١٤ - ٣٦٢)
مرفيين : (٦١٠ - ٨٧٦) الوطاسيين : (٨٧٦ - ٩١٥) .

(١) عصر الإدارة بما فيه عهد الدولتين التاليتين (١٧٢ — ٤٠٠ هـ) :

إن المولى إدريس بن عبد الله هو أول من استقل بالمغرب، عن الخلافة العباسية بالشرق، فأسس هناك أول دولة عربية . وإن مالا فاه من ضروب التكريم والمؤازرة ، جملة يصلح من المغرب وأهله . وجعله يستولى على المغرب الاوسط من أول سنة ، مما قضى على هرون الرشيد بالخوف من بسط يد هذه الدولة الفتية على ما كان تحت ظل الخلافة العباسية ، فأنفذ له من قضى على حياته بالحيلة والسهم التافع إن خبر هذه الدولة مسجل على صفحات التاريخ بماء الفخار ، فليرجع اليه من شاء التوسع ، وإنما نريد الوصول هنا الى القول بأن حركة الفتوح هذه التي قام بها إدريس وابنه الاصغر من بعده (١٨٨٦ — ٢١٣) ، لم تكن لتلفت الدولة عنها الى الناحية الادبية وإنما كان ههما توطيد مركزها أولا وقبل كل شئ .

ثم إن حدوث الفتنة بين أبناء إدريس الاصغر ، وتقسيمهم المغرب إلى مناطق حكم بينهم حسب اقتراح جدتهم السيدة كتنزة ، كل هذا مهد السبيل إلى قيام دولة آل أبي العافية الجديدة على أنقاض الدولة الإدريسية ، بعد حروب استمرت بين الطرفين ، وظل في بعضها الحسن (٢١٠ — ٢١٣) (من أسباط المولى إدريس) يطعن فرسان هذه الدولة في المحاجم الواحد تلو الآخر حتى لقب و بالحجاج ، كما يقول الشاعر :

وسميت حجاجا ولست بحاجم ولكن طعن في مكان المحاجم

وظل موسى ابن أبي العافية مؤسس الدولة الجديدة (٣١٣ — ٣٤١) يطاردهم الادارة حتى طردهم من فاس (عاصمتهم الرئيسية) فالتجأوا الى بني عمهم بالريف فيما يعرف بقلعة حجر النسر ، ولكن هذا الطاغية حاصرهم أيضا هناك وأراد استئصالهم لولا أن أكابر دولته لم يوافقوه على قطع دابر أهل البيت من المغرب فاستجبا عند ذلك وارتحل عنهم الى فاس مقر حكمه . ثم ما لبثت دولة رنانة من مغراوة وبني يفرن أن ظهرت في أفق المغرب حتى عجز هذا الاقوي بدخان الحروب والفتن الداخلية الطاحنة .

وما نريد في هذه العجالة احصاء الفتن والاضطرابات التي حصلت بين الدول

الثلاث المتعاقبة ، وانما يزيد اضافة أنه طوال وجود الدولة الفاطمية (التي ظهرت سنة ٢٩٧ هـ أواخر القرن الثاني الهجرى) باغريقية (تونس) والنزاع قائم بينها وبين الدولة الاموية بالاندلس على المغرب الاقصى .

هذا هو العصر الاول الزاهر لا بفنون الآداب ولكن بفنون الحرب والقتال فما عسى أن يكون مركز الادب فيه . بل ماذا هيئنا من أمة هذا شأنها في التغلب والانقسام على نفسها . وفي التشوق للحكم على أيد مختلفة ! لا ينتظر منها بالطبع أن تبرز في الاداب والعلوم والفنون بقدر ما برزت في فنون الطمان وعلومه وآدابه ان كانت للطمان آداب .

إن هذا العصر مبكر بالنسبة لاولئك البربر (السكان الاصليين) الذين لم يتغلغل فيهم الروح العربي ، ولا الثقافة العربية كل التغلغل . صحيح أنهم تقبلوا الاسلام بصدر رحب ، يوم أشربوا في قلوبهم بشاشته التي خالطت منهم اللحم والدم ، فكانوا أول سلاح لنشر دين التوحيد في ربوع الاندلس . ولكنهم سرعان ما رجعوا الى أنفسهم فظلوا يتقبون بين خفاياها كي يجدوا لها منفذا الى الحكم ومباشرة السلطة الزمنية ، ان لم يكن في ظل دولة حالية . ففي ظل دولة جديدة يسعون في انشائها ، مادام لهم الحق في هذا بصفته أعضاء في هذا المجتمع الإسلامي الجديد . ان هذه الحروب والفتن لا تشغل الادباء عن التفكير والانتاج فحسب ، ولكنها قد تقضى عليهم القضاء المبرم

وعامل آخر من العوامل التي ساعدت على تخود الادب في هذا البصر ، هو أن عدد العرب كان به قليلا نسبيا لا يكاد يؤثر في العقلية البربرية السائدة . إن البلاد كانت في حاجة ملحة الى رسل الثقافة العربية ينشرون لواءها فوق هذه الاراضي الممتدة في مدة أقل وبصفة أسرع . ولكن امداد هذه البلاد بالمهاجرين العرب ويرسل الثقافة العربية ، لم يكن متوافرا ، ذلك لان خط السير للهجرة كان متجها غالبا الى الاندلس المزدهرة ، ولان الانسجام التام لم يكن قد حصل بعد بين هذين القطرين الشقيقتين .

ويجب ألا ننسى ذلك الثغر الجميل (سبتة) الذي ظل يحمل مشعل الثقافة

العربية في حين كان المغرب جله في ظلام دامس .
ولم نقل كله لأننا استثنينا القاعدة الادريسية (فاس) فالراية الادبية فيها ظلت
تخفق في زميلتها (سبتة) .

إن موقع سبتة على البحر المتوسط (الرومي) وقربها من العدو الاندلسية جعلها
محطاً لرحال كثير من الأديباء والعلماء أولاً ، وسوقاً رائجة للادب والعلم ثانياً .
ولو لم تكن حركة هاتين المدينتين الادبية مقصورة عليهما بالذات نظرا للحروب
والفتن الداخلية ، لكانت هناك وجهة نظر أخرى في الحكم على أدب هذا العصر
وهو أنه لا يبرر الناظرين إن لم يكن يحزنهم ؛ ولكن الذي يخفف وقع هذا الحكم
على النفس هو أنه منصب على المجموع لا الجميع .

(ب) عصر الموحدين بما فيه عهد المرابطين (٤٠٠ — ٦١٠)

أما وقد حكمنا على العصر المتقدم بالانحطاط الذي فلا غرابة في أننا منفضطر
الى فترة انتقال بين عصر التمدد وعصر الحركة ، ولا غرابة أيضا في أن تكون هذه
الفترة هي مدة حكم المرابطين .

وهي وإن كانت طويلة إلا أنها كافية في بعث الأمن والطمأنينة في أرجاء البلاد
وفي إيقاظ الروح الأدبي والعلمي فيها .

ولكن يرقى أدب هذا العصر فإنه اتخذ سلما ومتكأ يصل به الى ما ينبغي من
درجات الكمال والرقى . هذا السلم أو المتكأ هو الأدب الاندلسي ؛ فلقد تأثر الأدب
في عهد المرابطين ، بالأدب الاندلسي تأثرا شديدا ، كما تأثر أدباء هذا العهد بأدباء
الاندلس أيضا . ذلك لأن الاتصال بين الطرفين كان قائما ، ولأن الحركة الادبية
بالاندلس كانت مزدهرة توثق أكلها كل حين .

إن الشعور بالنقص لهو الشعور بالواجب فلا عجب أن يكون التقليد والمحاكاة
هي الخطوة الاولى في سبيل اداء هذا الواجب . وهي خطوة طبيعية يخطوها كل من
آمن بوجوب مسايرة الزمن وأهله ، إن لم يكن في مقدمة القافلة وفي وسطها على الأقل
وبما دعا الى اتباع هذه الخطوة خطة التأثر بالأدب الاندلسي — زيادة على
الاتصال المباشر — ما كان يغلب على الدولة المرابطية من صيتها الدينية . ونحن
نعلم أن نهضة عبدالله بن ياسين من رؤساء هذه الدولة كانت دقيقة محضنة أساسا

الامر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد في الله حق جهاده ، نعلم ذلك من نفس القسمة التي كان سببها مرابطة عبد الله مع أصحابه الثمانية في جزيرة يعبدون الله فيها بعد أن كاد يأس من اتباعه في غيرها فكانت هذه المرابطة خير دعاية للجب الناس واستمالتهم فكان النجاح في المهمة وكانت الدولة ولقد تعب الناس في محاولة معرفة السبب الذي من أجله دعوا بالملثمين أيضا إلى أن أتى الشاعر فعبّر عن الحقيقة الواقعة أو أنه هدى الناس إليها إذ قال :

لما حووا احراز كل فضيلة غلب الحياء عليهم فتلثموا
وما دامت الدولة مصبرغة بالصيغة الدينية فلا غرابة في أن تصطبغ بها النهضة
أيضا ، ولا غرابة كذلك في أن تقرب الدولة العلماء والفقهاء على غير علم من الأدباء
والشعراء ، وذلك على الرغم مما جادت به قرائع هؤلاء من مدائح راحت ضحية
في سبيل العلم .

هذه الروح الدينية لم تكن متعمقة ذلك التعمق الذي تنشأ عنه الخلافات المذهبية
والآراء المتضاربة التي كانت سببا من الأسباب التي فرقت شمل الوحدة الإسلامية
بالمشرق ، وإنما كانت يسيرة يسر الإسلام ومبادئه ، ومشبعة بروح السلف الصالح
وذلك قبل أن يتألق - في آخر هذه الدولة - نجم جديد كان فيما بعد مؤسس
دولة الموحدين ؛ ونعني به محمد بن تومرت المعروف بالمهدي

ذلك النجم الذي كان شروقه بالمشرق وأبى غروبه بالمغرب قبل أن يؤدي
رسائله على الوجه الأكمل ، فلقد طاف بالبلاد الإسلامية الشرقية ولقي تقديرا
من رجالها أمثال أبي حامد الغزالي وقدم منها وزودا بمعارف جديدة ، وبطريقة
الاشعري في تفسير القرآن ، تلك الطريقة التي لم يرو فيها حرفا واحدا عن المفسرين
وإنما اعتمد على ما كان يختلج به صدره ، فلم يكن بالمغرب الاسلفيون يملكون
بالمشاهدات مرور الكرام ، إلى أن أتى (المهدي) فحلمهم على القول بالتأويل
والأخذ بمذاهب الاشعرية .

وكان المهدي - رغم بربريته التي كان يؤلف بها - فصيحاً لسنا يستميل
الجماعات بألفاظه العذبة مما حدا أمير المسلمين علي بن يوسف بن باشتين ٥٠٠ ٥٣٧

أن يعقد مناظرة بينه وبين علماء حضرته، فكان يسكبهم جميعا ويخجلهم ولولا إعجاب الأمير به غاية الإعجاب لما سلم من أذاه ولا سيما أن وزيره (مالك بن وهيب) حرصه على قتله قائلاً: هذا رجل مفسد لا تؤمن غائلته، ولا يسمع كلامه أحد إلا مال إليه.

فأمثال هذه المناظرة ان كانت تدل على شيء فانما تدل على أن دولة المادب صارت في رهان واحد مع دولة الفقه والعلم وبينما نرى في عهد الدولة المرابطية من يتلبس بلباس الفقهاء كي يصل المناصب العالية ويتولى الوزارة كما حصل من مالك بن وهيب الآنف الذكر، نرى في عهد دولة الموحدين من ينهض الى الوزارة على أكتاف الدولة الادبية، وذلك كابي جعفر بن عطية المتوفى سنة ٥٥٢ هـ الذي كان يصاحب أميره عبد المؤمن بن علي في غدواته وروحاته، والذي اتفق مرة أن صاحبه الى بعض مساكن مراکش، وبينما هما في طريقهما اذا بوجه جارية يطل من شباك، وكأنه الشمس الضاحية فنظر اليها الأمير فأعجبه حسنها فقال ارجعها: قدت فؤادي من الشباك إذ نظرت

فقال أبو جعفر: حوراء ترنو الى العشاق بالمقل

فقال عبد المؤمن: كأنما لحظها في قلب عاشقها

فقال أبو جعفر: سيف المؤيد عبد المؤمن بين علي

هذا الأديب الذي قدم الأمير عليه بعد الإيقاع به بسبب ذنب لم يغفره له. فلقد جمع الشعراء وأراد أن يمتحنهم بهجوه فلم يشفوا غليله فقال كلمته الخالدة: ذهب ابن عطية وذهب الادب معه،

ولعل نظرة الدولة الموحدية الى الادب نظرة العطف والتشجيع مما ساعد كثيرا على ازدهار الادب في هذا العصر، إذ كان عبد المؤمن منحة من الزمن وجمع الى حسن سياسته حسن التصرف في الادب وفنونه. ولقد مدحه محمد بن أبي العباس التميمي بيت استعاده منه مرارا وأمره بأن يقتصر عليه قائلاً له: لقد قلت في هذا كل شيء. وأجازة عليه بألف دينار ولعل النفس تشوف الى هذا البيت:

ما هو عطفه بين البيض والاسل مثل الخليفة عبد المؤمن بن علي

ولقد أورد صاحب المعجب في وصف احتفاله ببيمة أهل الاندلس له علي

ظهر جبل طارق الذى سماه هو وجبل الفتح، ما أورد بعضه قال : وكان يوم عظيم
اجتمع فيه من وجوه البلاد ورؤسائها وأعيانها وملوكها من العدوة والاندلس ما لم
يجتمع للملك قبله . واستدعى الشعراء وكان على باب طائفة أكثرهم يجردون فكان
أول من أنشده أبو عبد الله محمد بن حبوس من أهل فاس قصيدة أجاد فيها ما أراد
قال فيها :

بلغ الزمان بهديكم ما أملا وتعلمت أيامه أن تعدلا
وبحسبه ان كان شيئا قابلا وجد الهداية صورة فتشكلا
وأنشده ابن الشريف المعروف بالطلاق المرواني :

ما للعدا جنة أوفى من الهرب

فقال عبد المؤمن : إلى أين ؟ إلى أين ؟ رافعا يها صوته فقال الشاعر :

أين المفر وخيل الله في الطلب ؟

وأي يذهب من في رأس شاهقة وقد رمته سماء الله بالشهب
حدث عن الروم في أقطار أندلس والبحر قد ملا العبرين بالعرب
فلما أتم القصيدة قال عبد المؤمن : بمثل هذا تمدح الخلفاء .

وأنشد ابن سيد الاشيبلى الملقب باللص :

غمض عن الشمس واستقصى مدى زحل وانظر إلى الجبل الراسى على جبل
انى استقر به ؟ انى استقر به ؟ انى رأى شخصه العالى فلم يزل
فقال له عبد المؤمن : لقد أثقلتنا يارجل ، فأمر به فأجلس .

إلى غير ذلك مما لا نزيد به استقصاء وإنما مجرد تمثيل لحسب . هذه نظرة هذا
الخليفة إلى الادب والآداب . أما نظره إلى العلم والعلماء ، فتجلى في أنه أمر في سنة
٥٥٠ هـ بتحريق كتب الفروع ورد الناس إلى الأصول من الكتاب والسنة
واستنباط الأحكام منها ، ثم كتب بذلك إلى جميع طلبة العلم من بلاد الاندلس
والعدوة . إن النهضة التى حظي بها الفقه في الدولة المرابطية أنتجت كثرة المحصول
مما حدا بأمرنا أن يقوم بحركة التطهير هذه . ولا ريب في أنه لم يحمله على هذا
إلا حبه للبحث والاستطلاع من جديد ، ثم حبه لرقى العلم والآداب معاً .

لقد أصبح الأدب المغربي الآن قائما بنفسه بعد ما كان يعتمد على أخيه الاندلسي في تخطي العقبات التي كانت تعوق سيره وأطراده في التوابعين حين وآخر ولم تكن غضاضة على العقلية المغربية. في هذا، مادام أغلب الشعب كما تقدم من العنصر البربري، وصعب على هؤلاء أن يطفروا أو يصلوا القمة سرعاً في آداب هي في الأصل ليست آدابهم؛ وإنما التعلم بالتعليم.

ولقد استطاع الأدب المغربي أن ينهض من كبوته التي أصابته من جراء غلبة النهضة العلمية عليه أول الأمر، كما استطاع آخر الأمر أن يتسابق في مضمار واحد مع آداب عصره. فلم يعد يتأثر بأدب الاندلس إلا كتأثره بأدب غير الاندلس. بل الحقيقة أنه لم يبق مجال للتأثر الآن، لأنه خلفه مجال آخر جديدهو مجال المنافسة الادبية بين القطرين.

عصر المرينيين بما فيه عهد الوطاسيين (٦١٠ - ٩١٥)

إن ارتباط الأدب بالعلم ونهضتهما مما يجعلان الأدب في القمة، ويجعلان الانتاج الادبي في أعلى درجة من سلم الرقي الفكري فلا تخاف على مركز الأدب في هذا العصر المريني، بل لا نخشى شيئاً إذا قلنا أن سنة النشوء والارتقاء (سنة الله في أرضه) ظلت مطردة لم تقم في وجهها عقبات تعوقها عن السير والنمو الطبيعي.

ولقد كان التقدم شاملاً في جميع ميادين الادب والعلم، فحركة التطهير في الكتب الفرعية في العصر الموحدى لم تؤت أكلها في ذلك العصر وحده وفي دائرة العلم المحدودة فحسب، وإنما كانت لها اليد الطولى في سبيل رقى الأدب في هذا العصر التالي.

إن الوسط الادبي في هذا العصر كان على غاية من العلو اشترك في بنائه جميع الطبقات من السوقة إلى الملوك. ولقد أغرى هذا الوسط الفكري الراقى كثيراً من ذوى الحثيات وأرباب الشخصيات الادبية فجعلهم يؤمون حواضر المغرب ومدنه التي لها يد في تمكين المرش الادبي. وجهه - بل أمثال ابن الأحمر وابن الخطيب وابن خلدون يأوون الى كنف الدولة المرينية ويستظلون بظلمها.

إن هذه الدولة عربية الأصل تمت إلى قيس عيلان ، فلا تعجب إذا كانت خدمات المغرب خدمات جليلة في ظل لواء الاسلام وفي دائرة العروبة المجيدة . ولا تعجب أيضاً إذا رأينا الامتزاج والانسجام التام بين العرب والبربر وفناء الجميع في سبيل المصلحة العامة وفي خدمة الوطن الذي يحبه الجميع .

وان هذه النظرة العربية الاسلامية لتعيد إلى الأذهان ما كان من عز الاسلام ومجده الذي لا يفنى . وهذه النظرة يعبر عنها أحسن تعبير الأمير عبد الواحد المريني بقوله :

فرقت في الميدان كل ملك وجمعت بين جرأة ونسوك
وجعلت للاسلام حداً مالم يكن كلاً يعبره العدا بسلوك

وهما هو ذا السلطان أبو عنان المريني (٧٤٩ - ٧٥٩) يعطينا صورة عن طريق غير مباشر لما يجب أن يكون عليه أمير المسلمين أو الرئيس احلاقاً :

وإذا تصدر للرياسة خامل جرت الأمور على الطريق الأعوج
إن القوة الأدبية لتسير جنباً إلى جنب مع القوة السياسية في هذا العصر ، فكانت الدولة السياسية على أشد ما تكون قوة وصوله ، وكانت الدولة الأدبية تجاريها في هذا أيضاً مع العلم بأن صولة الأدب هي ازدهاره وعظمته . وإذا كان الملوك قد اشتركوا في الحركة الأدبية وفي أعلام بنيانها ، فلا ندهش إذا ما أنتج لنا الأمير أبو الحسن المريني مثل هذه الموشحة اللطيفة :

مطلع : في نعمة العود والسلافة والروض والنهر والتديم
أطال من لامي خلافة فظل في نصحه ملهم
دور : دعني على منهج التصابي بما قام لي العذر بالشباب
ولا تطل في المتى عتابي فلست أصغى إلى عتاب
لا ترج ردى إلى جواب والسكاس تفتت عن حجاب
والغصن يبدي لنا انعطافه إذا هفا فوقه التقسيم
والروض أهدى لنا قطافة واختال في برده الرقيم ..

وتصل أبياتها الى خمسة وعشرين بيتاً عدا المطلع (انظرها في فتح الطيب ص ٢٢١)

ج ١) وفي هذا العصر بدأ تكون الشعر العامي الذي ظن بعضهم أنه كل أدب المغرب أو أنه يعطى صورة حقيقية منه : وهي صورة مهما اعتبرناها صادقة لا تتدل إلا على أن الشعب المغربي أراد أن يعبر عن حياته اليومية فراح ينشد الشعر بلغته العامية على منوال الشعر العربي الفصيح في أوزانه وبحوره وأغراضه .

إن هذا الشعر العامي كان يسير في ركاب واحد مع زميله الفصيح ، فلقد تعددت مناحيهما وأغراضهما حتى أنهما ليعطينا صورة حية للحياة الاجتماعية بالمغرب الأقصى في ذلك العصر .

وكان من غرول هذا اللون من الأدب ابن شجاع وهو من أهل تازا ، على ابن المؤذن سلمان ، والكفيف وهو من زرهون .

وما قال ابن شجاع في قصيدة وهو يصف حالة اجتماعية خطيرة

المال زينة الدنيا وعز النفوس يهسى وجوها ليس هي باهيا
فها كل من هو كثير الفلوس ولوه الكلام والرتبة العليا
يكبر من كثر ماله ولو كان صغير ويصغر عزيز القوم إذا افتقر
من ذا ينطبق صدرى ومن ذا يصير يكاد يتفقع لولا الرجوع للقدر
حتى يلتجئ من هو في قومو كبير لمن لأصل عندو ولا لو خطر
ومن مقطوعة له يصف لنا الحب الخائن :

تعب من تبع قلبو ملاح ذا الزمان أهمل يا فلان لا يلعب الحسن فيك
ما منهم مليح عاهد إلا وخان • قليل من عليه تحبس ويحبس عليك
يهبوا على العشاق ويتمنعوا ويستعمدوا تقطيع قلوب الرجال
وان وأصلوا من حينهم يقطفوا وان عاهدوا خانوا على كل حال
مليح كان هو بت لو وشقت قلبي معو وصيرت من خدى لقدمو نعال

وأما الشاعر الكفيف فلقد أبدع في مذاهب هذا الفن ، ولقد وصف رحلة السلطان أبي الحسن وبني مدين إلى إفريقية (تونس) يذكر هزيمتهم بالقيروان ويعزيمهم بما وقع لصيرهم ، يقول في مفتتحها وهو من أبدع مذاهب البلاغة في

الاشعار بالمقصد في مطلع الكلام ويسمى براعة الاستهلال :
 سيجان مالك خواطر الامرا ونواصيها في كل حين وزمان
 إن طعنائه عطفهم لنا قسرا وان عصيائه عاقب بكل هوان
 وهي مقطوعة طويلة جداً تشبه أن تكون ملحمة ، وقد ذكر بعضها في (المقدمة).
 وكان هناك نوع من الشعر تشوبه روح الفكاهة ، مما يتفكك به الادباء في مجالسهم
 أو يداعب فيه الصديق صديقه . فها هو مالك بن المرحل يداعب شيخوخته بهذين
 البين :

يا أيها الشيخ الذي عمره قد زاد عشرا بعد سبعينا
 سكرت من أكوام خمر الصبا فخذك الدهر ثمانينا
 ولاني عبد الله المكودي وقد بعث له بعض أخوانه بشراب مذيقي أي مزوج ماء :
 بعثت بخمر فيه ماء وإنما بعثت بماء فيه رائحة الخمر
 فقل عليه الشكر إذ قل سكرنا فنحن بلا سكر وأنت بلا شكر
 إن شعراء هذا العصر وأدباءه الكثير يعجز المقام والوقت عن حصرهم ، ولكن
 لا بد لنا من أمثلة من الشعراء ونماذج من شعرهم كي ندعم بها القول فنقول : قد
 تقدم القول بأن العرش الادبي في هذا العصر اشترك في تملكته جميع الطبقات على
 السواء . وتقدم كذلك رأى الزجال ابن شجاع في الحب والهوى ولكننا نرى
 أن السلطان أبا العباس المريني يخالفه في الرأى بخالفة تامة ، وقد لانستطيع لهذا
 تعليلا اللهم إلا إذا كان هوى السلطان سلطان الهوى :

أما الهوى يا صاحبي فألفته وعهدته من عهد أيام الصبا
 ورأيت قوت النفوس وحليها فتخذته ديناً إلى ومذهبا
 ولست دون الناس منه حلة كان الوفاء لها طرازا مذهبا
 لكن رأيت له الفراق منفصا لامرجأ بفراقنا لامرجأ
 وبمناسبة ذكر الفراق نورد بيتين لابن هاني السبتي في النوى قال موزياً :
 ما للنوى مدت لفير ضرورة ولطالما عهدى بها مقصورة

إن الخيال وإن دعت ضرورة لم يرض ذلك فكيف دون ضرورة .
إن سبته بما أنتجته من خول الادب لتستحق أن تسمى « بمصنع الآداب » ، ولعل
الطبيعة قد أعدتها لتكون كذلك . وبكيفية أخرى أن تنجب أمثال مالك بن المرحل
الذى يقول فى وصفها :

أخطر على سبته وانظر الى جمالها تصبو إلى حسنه
كأنها عود غناء وقد ألقى فى البحر على بطنه
ذلك الناعر الذى قاسى من محبوبه ما جعله يفكر فى رفع الدعوى عليه أمام محاكم
الحب ، وماذا كانت تكون النتيجة لو وجدت هناك محاكم للحب حقيقة ؟ الحكم فى
هذا للقضاء ! وإن كان الظاهر أن حجج المدعى قوية :

شكيت لقاضى الحب ، قلت : أحبنى جفونى وقالوا أنت فى الحب مدعى
وعندى شهود بالصباية والاسى بزكون دعواى اذا جئت أدعى :
سهادى وشوقى واكتئابى ولوعتى ووجدى وسقى واصفرارى وأدمى
ومن عجب أنى أحسن اليهم وأسأل شوقا عنهم وهم معى
وتبكي دما عيني وهم فى سوادها ويشكو النوى قلبى وهم بين أضلعي
ولولا ضياع شعر هذا الشاعر الذى اعترف ابن خلدون بشاعريته على تحفظه
المعهود فى إصدار أحكامه لعرفنا عنه الشيء الأكثر .

وأقول : إن المغاربة لازالوا مرضى بحب الكتب وملء الخزانات بالمطبوعات
والمخطوطات النادرة ، ولوساعدوا على نشرها لكان الادب المغربى - أولا وبالذات -
ملء الافواه والاسماع ، وإمكان للنظريات العلمية المغربية - ثانيا - كراسى فى
معاهد العلوم الحديثة على اختلافها .

وخلاصة القول أن الادب فى هذا العصر كان مرآة صافية لحياة الشعب ترتسم
عليها عواطفه وميوله أكثر منه فى أى وقت مضى . فللحقيقة دون الخيال والوضوح
دون التعمق المقام الاول ، كما أن للرقعة فى غير ضعف والجزالة فى غير عنف مثل
ذلك المقام أيضا .

وليت الامر يقتصر على هذا الحكم العادل فيحفظ الادب بمركزه ، ولكننا نرى عهد بنى وطاس الذى تلا هذا العهد المربى والذى أدجنناه فيه وكونا منهما عصرا واحدا ... نراه عهد فن وحروب لم يكد المغرب يدوق فيه طعم الراحة والطمأنينة ، ولم يستغرق هذا العهد لحسن الحظ زمنا طويلا ، فلم تلبث العناية الالهية أن أغاثت المغرب بالزعيم الذى أسس الدولة السعدية . فأعاد السلام والامن الى البلاد ، كما قضى على الفتن والحروب التى كادت تقضى على دولة الادب ،

(د) عصر السعديين (٩١٥ - ١٠٥٠)

ان ستة النشوء والارتقاء كانت تكون مطردة لولا ما يعوقها عن هذا الاطراء من حين لآخر . ولولا هذه العوائق لظل الادب مزدهرا سائرا فى طريقه لاشئ يعوقه .

لقد كانت الدولة الوطاسية - كما تقدم - أشغل من ذات النحيين مع أعدائها الداخلين والخارجيين ، فلا بد اذن من أن يشغل الادب والادباء شغل أيضا وسط هذه الزعازع الهوجاء ، والامواج المتلاطمة ، الى أن يبعث اللطف الا لاهى من يقود سفينة الادب الى شاطئ السلامة أولا ، ثم من يقوم بعمليات اسفاف الأدباء ثانيا حتى يفيقوا من غشيتهم فنظمين على السفينة وعلى سلامة الركاب .

لقد قدم بمقدم الدولة السعدية الامن والسلام يرفرفان باجنحتها على ربوع المغرب ، فعاد للادب تبعاً لذلك حيويته وقوته ، وعاد يخلق بجناحيه من جديد فى أجواز السماء

ولعل مما يصور لنا الحركة الادبية فى أجلى مظاهرها تلك الخصومة الادبية التى تقوم بين الادباء بين حين وآخر . والى تكون بين اثنين ثم تنتشب الى ثلاثة فينقسم الراى العام الادبى حسب هذا التشعب فيتصعب كل فريق الى رايه ومن ورائه أعوانه وأنصاره . وعلى هذا الاساس قامت خصومة أدبية فى مسألة الهيلة (لا إله إلا الله) وهل الحق سبحانه يدخل فى المنفى بلا؟ وهل تنتفى بها ألوهية الصنم وغيره مما يعبد بغير حق ؟ وقد لا يسمع الوقت ولا المقام بتبيين وجهة نظر كل واحد من أركانها

الثلاثة : الامام الحروبي (٨٩٧ - ٩٥٩) واليسئني (٨٩٧ - ٩٥٩) والمهبطي توفي سنة ٩٦٣ ، وإنما يسمح الوقت والمقام بأن نقول : إنها كانت على غاية من العنف والحدة حتى أراد السلطان (الشيخ السعدي : ٩٤ - ٩٦٤) أن يتدخل فيعقد مجلسا للمناظرة بين الثلاثة ولكن المهبطي لم يرد الدخول فيها فلم يجد تدخل السلطان فيها شيئا . ولقد تعصب كل لرايه وألفت في المسألة رسائل ، وظلت موضع نزاع شديد بين الطلبة وعلماء الكلام حتى أتى العصر العلوي فتصدى لها أبو علي اليوسى وألف كتابا قيما اسمه : مناهج الخلاص من كلمة الاخلاص ، ويظهر أن اليوسى كان رائده الاخلاص فكان النصر حليفه في حل الاشكال ومن كلامه في كتابه قوله : واذا قد تعرضنا لكلام هؤلاء الاثمة فلا بد أن نتصفحه بعض التصفح ونشير الى ما عند كل واحد في كلامه بما لا بد من الاشارة اليه والتنبيه عليه معطيا أن شاء الله كل ذي حق حقه ومعطيا أيضا الحق حقه فان لحوم العلماء مسمومة والصدع بالحق منه معلومة ... الخ

وقد يقال إن هذه المناظرة أقرب إلى التوحيد منها إلى الأدب . والجواب على هذا هو أن الأدب لا يعرف الحدود والقيود أو أن الأدب هو الاتساع في العلوم كما يقول ابن قتيبة .

إن عهد أحمد المنصور الذهبي (٩٨٦ - ١٠١٢) (من ملوك هذه الدولة) كان عهداً ذهبياً بالنسبة الى دولة الأدب ، فلقد كان بلاطه طائفاً بالعلماء والادباء من كل صوب وحذب وعلى رأسهم المقرئ صاحب نفح الطيب وأزهار الرياض وغيرهما . ولقد اتفق مرة أن ضم مجلسه ثلاثة أشخاص : مكى ، مدنى ، مقدسى ، فقام المكى وقال : يا أمير المؤمنين ! إن المساجد الثلاثة التي تشد إليها الرحال قد تشد أهلها اليك الرحلة وأنشد : —

إن أمير المؤمنين أحمد بحر الندى وفضله لا يخمد

فطية ومكة أهلها والمسجد الأقصى بذاك تشهد

ثم قال : أنه لم يتفق هذا الملك قصدت إيمالاته . قال المقرئ (راوى الحكاية) :

فتبسم لذلك أيدته الله وأجزل لهم العطا ، دأبه بكل رافد عليه من أى بلد كان . لقد كثرت عدد الثوابغ فى هذا العصر فى ظل هذه الدولة الوريث ، وذلك بفضل تشجيع الدولة للأدب واقبال السلاطين أنفسهم على التأديب . فهنا هو ذا المنصور وما هو ذا غزله : —

حرام على طرف يراه منام وحل الجسم قد جفاه سقام
وكيف بقلب فى هواه مقلب وأنى له بين الضلوع مقام
فيا شادنا يرى الحشا أنت بالحشا أما لحل أنت فيه ذمام ؟

وإذا كان الأمر كذلك بأن كان المنصور سلطاناً : أحدهما زمنية والاخرى أدبية فلا غرو فى أن يشترك معه فى سلطته الزمنية زعيم الادب فى ذلك العصر ونعنى به الوزير عبد العزيز النشتالى (توفى سنة ١٠٣٢) ، ذلك الاديب الذى يقول عنه المنصور نفسه : أنا فمتخر به على ملوك الارض ، وبارى به لسان الدين بن الخطيب ومنزلة ابن الخطيب غير خافية على أحد فهو إمام النظم والنثر فى الملة الاسلامية غير مدافع كما يصفه ابن خلدون بالحرف الواحد . وأما منزلة النشتالى فاذا تركنا شهادة المنصور جانباً وأقبلنا على هذين البيتين فقط من شعره استخلصنا منهما حكماً يتفق ومكانته العالية فى رقة الاحساس وجودة النسيب :

حين أزمعت عند خوف البعاد وعدتني من الفراق العوادي
قال صحتي وقد أطلت التفاني أى شيء تركت قلت فؤادي

ولقد كان من دواعي القول تلك المناسبات (من حفلات ومواسم وأعياد) التى كانت تقام فتكون غذاء صحياً لفنون النظم والنثر . ومن هذه الاعياد التى بدأت بالمغرب وتكررت ولا زالت الى الآن عيد المولد النبوى . ذلك العيد الذى كانت تتكرر به المباريات الشعرية بتكرر السنوات ، ومن هذه القصائد قصيدة لصاحبنا النشتالى وهى تربو على المائة بيت يقول فى مطلعها :

هم سلبوني الصبر والصبر من شانى وهم حرموا من لذة الغمض أجفانى
إلى أن يتخلص من مدح النبى صلى الله عليه وسلم الى مدح المنصور ثم يختمها بقوله :

وهاتيك أبتكار القوافي جلوتها تغازلهن الحور في دار رضوان
أنتك أمير المؤمنين كأنها لطائم مسك أو خمائل بستان
تعاظمن حسنا أن يقال شبيها فرائد در أو قلائد عقيان
فلا زلت للدنيا تحوط جهاتها وللدن تحميمه بمالك سليمان
ولا زلت بالنصر العزيز مؤزراً تقادلك الأموال في ذى عبدان

ثم ها هي ذى صحة المنصور وقد انحرفت قليلا فتعرج لذلك صحة العالم ولكن
رب العالم شاء أن يبيل عالمه من علته بمجرد إبلال المنصور من مرضه ، ذلك هو
ما يعبر عنه النابغة الموزلي :

تردى أذى من سقمك البر والبحر وضجت بشكوى جسمك الشمس والبدر
وبات الهدى عليك مسهدا وأصيح مذعورا الفؤاد الندى الغمر
فلما أعاد الله صحتك التي أفاق بها من غمه البسود والحضر
ترادت لنا الدنيا بزيئة حسنها وعاد الى أبانه ذلك البشر
وصار بك الاسلام في كل بلدة يهنا ويدعو أن يطول لك العمر
الى أن يقول :

بقيت لهذا الدين تحمي ذماره ويحميك رب العرش ما بقى الدهر
هذه هي الناحية السياسية للمنصور نلتمسها في تضاعيف المكتب وقصائد
الشعراء وأما الناحية الادبية له فقد نلتمسها في اختراعه أشكالا من الخط على عدد
حروف المعجم وكان يكتب بها فيما يريد ألا يطلع عليه ، فاذا سقط الكتاب أو
وقع في يد عدو أو غيره لا يدري ما فيه وهذا نموذج خطيب بما كان هو الاصل والحروف
الشفرة ، المستعملة الآن . ولقد كان المنصور يتقن الخط المشرقي بازاء اتقانه الخط
المغربى ، وحدث أن كتب بخط يده على طريقة أهل المشرق لكاتب سره أبى عبد الله
بن عيسى يستدعى منه كتابا فبعثه اليه بن عيسى ومعه هذان البيتان

شقتنى كئوس السرور دهاقا خطوط اتسنى في مهرق
رأت كف أحمد في الغرب بحرا فيجاءت اليه من المشرق

وكاتبه هذا هو مؤلف الممدود والمقصود من سنا أبي العباس المنصور، قال المقرئ : وهذه التسمية وحدها مطربة .

وكذلك عرف المنصور الرسائل الادبية وقدرها حتى قدرها ليس فقط في حدود الدولة التي يرأسها وإنما تعدى ذلك فالتفت الى الاقطار الشقيقة الاخرى والى توثيق الصلات الادبية بين بعضها وبعض وبين أدباؤها الذين هم مصباح الهدى والوئام في كل العصور

فلقد استجاز المنصور أدباء مصر الشقيقة في ذلك العهد فأجازه الامام محمد بن أبي الحسن البكري بفصول في الشهر يعجبني منها قوله في ختامها وقد أدرك غرض المنصور من توثيق العلاقات الادبية على الدوام . فمولانا مجاز من هذا العهد ، من جميع ما يجوز لهذا العهد ، بجميع ما يجوز له وعنه روايته بشرطه المعتبر عن أهل الامر ، وكذلك مجاز أهل العصر أجازة عام بهام ، ليكون أبناء الوقت جميعا على مائدة فضل مولانا وتحت ظلال ذلك الانعام ، فانه السبب في تحصيل ذلك المرام (وهي مؤرخة : ١٤ / ٤ / ٩٩٢ هـ)

وكذلك أجازة العلامة بدر الدين القراني صاحب ذيل الديباج وغيرهما من الادباء والعلماء الاجلاء .

وأن ازدهار هذا العصر كالذي قبله وبعده في مختلف فنون الادب والعلم لتجمل الباحث في حيرة وارتباك لانه لا يدري ما يأتي وما يدع . ويجب ألا ننسى عاملا مهما من عوامل ازدهار الادب في هذا العصر ، هذا العامل هو الزاوية الدلائية التي أخذت بضيق الادب آخر هذا العصر ، فلقد كانت حصنا حصينا للادب والعلم وأخذت على عاتقها أن تنشر العلم وتؤدي طلبته فتخرج على يديها عدد عظيم من الادباء والعلماء . ولكن هذه الزاوية كانت لها مطامع سياسية اثر انقراض الدولة السعودية فقامت بحروب مع مؤسس الدولة العلوية الشريفة فاضطرته الى تقسيم المقرب بين الزاوية والدولة ، الى أن أتى المولى الرشيد العلوي (١٠٧٥ - ١٠٨٢) ففضى عليها القضاء المبرم كما يتأتى القول في العصر الثاني

ان هذه الزاوية لتفخر بأهلها كانت معقلا من المعامل الحبيبة للعلم والادب في عهد ما، وإنما لتفخر كذلك بانها ظلت تمد العصر العلوي بزعماء الحركة الادبية زمننا غير يسير، وذلك رغم انقراضها من هذا الوجود.

(٥) عصر العلويين (١٠٥٠ - ١٣٠٠) :

هذا هو آخر عصور الأدب المغربي التي أردنا الحديث عنها، وهو. وان كان يبدأ بقيام الدولة العلوية الحالية، إلا أن الدراسة الأدبية لهذا العصر ستقف عند آخر القرن الثالث عشر الهجري وان تتعداه إلى اليوم. وبما ذلك إلا لأن مراجع البحث في هذه الفترة معدومة بسبب الظروف، الحاضرة، على أنه قد تواترنى فرصة أتمكن فيها من المراجع ومن الكتابة إن شاء الله.

أما فيما يتعلق بحياة الأدب في هذا العصر فانها ظلت تواصل سيرها قدما، وعلى الرغم من الحوادث التي صدمت الحياة الأدبية في أول هذا العصر عند القضاء على الزاوية الدلائية، إلا أنها ظلت منتصرة على طول الخط.

المولى رشيد (١٠٧٥ - ١٠٨٢) : إن الرشيد في قضائه على هذه الزاوية يغفر له فعلته هذه أمران :

- (١) خوفه السياسى على دولته الجديدة وعلى وحدة المغرب الذى يجب ألا يتجزأ
 - (٢) إكرامه لطلبة العلم وأساتذته من أهل هذه الزاوية بعد الايقاع بها.
- فقد نقلهم جميعا الى العاصمة (فاس) ومن بينهم الاديب والعلامة أبو على الحسن اليوسى المتوفى سنة ١١٠٢، ذلك الاديب الذى يقول عن نفسه : لو شئت أن لا أتكلم إلا بالشعر لفضلت، والذى رثى زاويته التى تخرج فيها بقصيدة تنيف أبياتها على الحسين بعد المائة يقول فى مطلعها :

أكلف جفن العين أن يشتر الدرا فيأبى ويعتاض الحقى بها خرا

وإذا عرفنا أنه بكأها وقال فيها ما قال، وهو فى أحضان الدولة التى قضت عليها، عرفنا المقدار الذى كان يتمتع به الأدهاء من حرية القول فى ذلك العهد. وذلك هو الاديب الذى يشرح لنا علاقة الزهر بالغيث فى أسلوب ساحر :

ان بين الغمام والزهر الغرض لرحا قديمة واخاء
 بان لاف عن لافه فتواري في الثرى ذا وذاك حل السماء
 فاذا ما الغمام زارت جنابا . اذنت فيه بالحبيب اللقاء
 ذكرت عهده القديم فحنت عند لقياء فاستهلت بكاء
 فترى الزهر بارزا من خبايا . يحى الوفود والاصدقاء
 بادى البشر والبشاشة جذ لان لبوسا من كل لون رداء
 مملا من شمول شمس الضحى وهـ وعلى بسط سندس خضراء
 راقصا والصبا تهنيه والورق غواني القيان تشدو غناء

أما اليوسى العلامة فيكتب أن يقول فيه أبو سالم الميماسى (١٠٣٧ - ١٠٨٠ هـ)
 صاحب الرحلة المعروفة :

من فاته الحسن البصرى يصحبه فليصحب الحسن اليوسى يكفيه
 المزاد القول بأن طلبة العلم ورجاله ظلوا يدرسون ويدرسون العلم والآداب ،
 وظلوا يكرعون من متاهل الثقافة العذبة ، ويواصلون الدراسة تحت ظل من يناصر
 العلم والآداب ويماضهما من ملوك هذه الدولة وأرباب البلاط فيها .
 فلنحمد الله على أن الحركة الادبية في هذا العصر لم تكن أقل نشاطا منها في
 أى عصر مضى . وكيف يموت الأدب وهذا الخليفة الرشيد يثيب على بيتين من
 الشعر قالهما فيه شاعر جزائرى فيصليه بألفين وخمسمائة أو خمسين دينارا على رواية
 أخرى وهذا البيتان هما :

فاض بحر النوال فى كل قطر من ندى راحتك عذبا فراتا
 غرق الناس فيه واتس الفقر خلاصا فلم يجدده فاتا
 انظر الى هذا الخيال البديع الذى يجعل من الفقر شخصا يبحث عن خلاصه
 من الغرق الذى هو نعمة وسلام على البلاد وأهلها ، ونقمة وحرب عوان على الفقر
 وحده ، ثم تكون النتيجة القضاء عليه قضاء مبرما ... حقا ان من الشعر لحكمة
 أم كيف يموت الأدب وهذا المولى محمد بن عبد الله (١١٧١ - ١٢٠٤)

يحتضن الادباء والشعراء ويحبوهم برعايته السامية، فلقد ألف ابن اللونان المتوفى سنة ١١٨٧ أرجوزته الشهيرة بالشمقمقية (لأن أباه كان صاحب نواذر وملح مع السلطان فكناه أبا الشمقمق) التي يقول في مطلعها :

مهلا على رسلك حادى الايتق ولا تكلفها بما لم تطق

والتي يقول عنها صاحب الاستقصاء (١٢٥١ - ١٣١٥) : إنما من الشعر الفائق ، والنظم البديع الرائق ، أبان منشئها عن باع كبير ، واطلاع غزير ، على أخبار العرب وأيامها وحكمها وأمثالها ، بحيث أن من حفظها وعرف مقاصدها أغنته عن غيرها من كتب الادب ، (ص ١٢٢ ج ٤)

ولكن ماحيلة الشاعر وقد تمذر عليه الوصول الى السلطان صاحب أبيه ؟ لم يعد في امكانه إلا أن يتحين فرصة خروجه في وكب من مواكبه الفخمة فيصعد على تشز من الارض ويصبح :

ياسيدي سبط النبي أبو الشمقمق أبي

فيعرفه السلطان ويأمر باحضاره الى القصر ، ثم ينشده الشاعر أرجوزته التي تقرب من ثلاثمائة بيت فتقع من المولى الموقع الحسن فيجزل صلته ويرفع منزلته لقد تعددت الفنون الشعرية والاعراض الادبية بتعدد الادباء . وانتاج كل أديب ، ومن العسير أن أعطي في هذه العجالة صورة من كل غرض ، وإنما حسبي أن اتخذ نموذجا يقياس عليه غيره . وليكن هذا التودج في ميدان الغزل والنسيب ذلك الميدان الطيبي ، للانسان ، والذي يصدر فيه كل شاعر على حسب سجيته ووفق هواه . ولا تقطع شيئا من قصيدة الوزير محمد ابن ادريس المتوفى سنة ١٢٦٤ التي تذكرك بموسيقى عيد الوهاب وغنائه وتفصيك نفسك التي قد تكون مثقلة بمهوم الحياة :

سحرتك بالطرف الكحيل الساحر وبحسن قد كالفضيب الزاهر
وبقرة كالغجر تحت ذوائب كدجنة فأعجب لحسن باهر
وبنقطة مسكية في وجنة وردية ذات الاريج العاطر

وبريقها المعسول الا أنه يشفى الحشا من كل داء ضائر
ريق أعز على من نيل المنى وألذ من رشف الرحيق لخاطر الخـ
وهذه قطعة خالدة للأديب أبي عبد الله الشرقى صاحب العلمى مؤلف الانيس
المطرب :

من لى بها تختال فى حليها كروضة تختال فى زهرها
فبشرها أرحب من بشرها ونشرها أطيب من نشرها
وخدها أبهج من وردها ونورها ألطف من نورها
وقدها أرفع من غصنها ووجهها أبيض من فجرها
العيش والجنة فى وصلها والموت والنيران فى هجرها
عاطيتها راحا مشعشة كثل ياقوت على نحرها
راح أراح الانس فكري بها من شارة الدنيا ومن شرها
وهى فى مجلس أفرأحها كأنها الزباء فى قصرها
لو تسعد الدنيا بزورها لاصطلع الناس على شكرها

وهى لرقناتها تستحق الخلود أيضا تلحينها وغناء

ومما يتفرع من هذا الموطن شعر الاشارة ، الذى يمت به صلة قربي الى باب
الغزل والنسيب . ان التصوف ان الادب الصميم ، فكيف لا يكون المتصوفة من
أرباب الادب أيضا وهل هناك فرق بين الادباء والمتصوفة الا أن ليلي الاديب مريضة
وليلي المتصوف مريضة ! على أنه قد لا يجدى تمريرها مع صبايته شيئا يفنى فى

هواها وتبقى ليلي وحيدة فى هذا الوجود استمع الى قول السيد الحسراق

أتت الدجى كي لا يراها رقيبها ويخلص من شر الوشاة حبيبها
فتم بها اشراق نور جمالها وأخبر عنها اذ تهتو طيبها
فوالله لا يخلو بها غير عاشق رقيق المعانى فى الامور لبسها
فى قيدت فى موضع الوصل وحدها ولما يكن شئ هناك يربها

ولا أريد الاستشهاد كثيرا فان هذا بما يطول بهذا البحث القصير وأرجو الله
أن أكون قد أعطيت صورة مصغرة لحياة الادب في هذا العصر خاصة وفي
المصور السابقة له عامة ، كما أرجو أن أكون قد وفقت في اعطاء هذه الصورة
ولو بعض التوفيق ؟

عبد الله محمد العمراني

فهرس العدد الثاني من السنة الثالثة عشرة من

صحيفة دار العلوم

صفحة	
٣	في رسالة الغفران لابن الملا . للاستاذ السباعي يومي الاستاذ بدار العلوم
١٠	اثر الحضارة العربية في التربية للاستاذ عبد الحميد حسن
٢٩	شوقي والعلم للاستاذ محمد احمد الحوفي المدرس بالمدرسة السعيدية الثانوية
٤٣	اسماء بنت ابي بكر للاستاذ محمد بيلى الفار المفتش بالمعارف
٤٧	في الادب المغربي للاستاذ عبد الله محمد الميراني خريج دار العلوم